المحاضرة الثالثة

(تاريخ اوربا في العصور الوسطى)

١) ظهور المسيحية وانتشارها:

ظهرت الديانة المسيحية في فلسطين وانتشرت في اقاليم الامبراطورية الرومانية شرقا وغربا بسرعة تثير الاعجاب والتساول . فهذه الديانة الشرقية التي بشر بها رجل كان يعيش في بقعة مغمورة تقع في زاوية نائية من زوايا الامبراطورية ، قدر لها ان تنتشر ذلك الانتشار الواسع ، وان يعترف بها ديانة رسمية في الامبراطورية الرومانية بعد ثلاثة قرون فقط من ظهورها ، ولتصبح بعد ذلك بوقت قصير الديانة الوحيدة المعترف بها بل الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية المترامية الاطراف.

ثمة تعليلات كثيرة لذلك النجاح الذي حققته المسيحية منها : طبيعة تركيب الامبراطورية الرومانية فقد كانت اجزاء هذه الامبراطورية مرتبطة بعضها مع بعض بشبكة من الطرق ووسائل المواصلات لا نظير لها في العالم القديم اجمع وكان الامن يسود تلك الطرق وقد ساعد هذا على انتقال العقائد والافكار بين اقاليم الامبراطورية بسرعة ويسر تماماً كما كان يساعد على انتقال التجارة وتحرك الجيوش ثم ان طبيعة الديانة المسيحية التبشرية ساعدت على سرعة انتشار المسيحية . لقد انتشرت المسيحية في بداية الامر بين المحرومين والفقراء من سكان المدن ، ثم اخذت تنتشر بين كل الفئات والطبقات، لقد كان المسيحيون الأوائل كلهم مبشرين . كانوا يحملون ديانتهم الجديدة ويدعون لها في حلهم وترحالهم . ولم يكن هناك من شي ادعى الى السعادة الى قلب المسيحي من كسبه مؤمن جديد الى ديانته المسيحية . لقد كان المسيحيون يبشرون دون خوف او وجل بثبات واصرار وكثيرا ما تعرضوا بسبب ذلك الى الاذى والاضطهاد. وبالإضافة الى هذا فقد كانت فئة من المسيحين الأوائل تركت امور الدنيا كافة وكرست حياتها وجهودها من اجل التبشير بالعقيدة الجديدة ولهذه الفئة بالذات يعود الفضل الاول لما حققته المسيحية من النجاح . ومن هؤلاء بطبيعة الحال تلامذة السيد المسيح المقربون او ما يسمون بالرسل والحواريين. وفي مقدمة اولئك الرسل القديس بولص وهو مثقف يهودي ومواطن روماني من اهل طرسوس. كان خصما للمسيحية في بداية الامر ثم صار من المؤمنين بها.

تميز القديس بولص بثقافة عالية جدا فقد كان بطبيعة الحال عارفا بالتعاليم اليهودية وبتراثها. ثم انه كان ملما بالفلسفة اليونانية وبالأفكار والاتجاهات التي كانت سائدة في عصره. والى جانب هذا وذاك كان مطلعا على الديانات الشرقية المختلفة التي كانت اخذة في الانتشار في نفس الوقت الذي ظهرت فيه المسيحية وبدأت في

الانتشار. لقد بشر القديس بولص بالمسيح وبالديانة الجديدة . وكان تبشيره ومواعظه موجهة بالدرجة الأولى الى ابناء قومه ومواطنيه ولكنه في الوقت نفسه امن ، منذ البداية ، ايمانا مطلقا وعميقا بان المسيحية ديانة جميع الاقوام والشعوب والاجناس. لقد سافر بولص في طول الامبراطورية الرومانية وعرضها واحاط بـه في كل مكان مجموع التلامذة المتحمسين للعقيدة الجديدة . واوجد في كل بقعه حل بها جماعة . المؤمنين الغيورين كان همها بعد ان يفارقها القديس بولص القيام بدوره بالتبشير للديانة المسيحية وكسب الانصار والمؤيدين لها.

والى جانب جهود المسيحيين الاوائل وتضحياتهم ودور الرسل والحواريين ، فان التطورات الفكرية والدينية التي كانت تشهدها الامبراطورية الرومانية وقت ظهور المسيحية قد تعطي تفسيرا ملائما لنجاح المسيحية .

لقد كانت الوثنية اليونانية والرومانية فقدت الكثير من حيويتها وجاذبيتها بسبب الانجازات الثقافية والفكرية اليونانية العظيمة . وحاول اوغسطس دون جدوى ، رفع منزلة الالهة الرومانية من جديد . ولم يوفق اوغسطس الا بتأكيد عبادة الامبراطور. وقد اصبح هذا في الواقع هو الدين الرسمي للدولة . ولكن عبادة الامبراطور بحـ ذاتها اثارت شكوك المثقفين والنابهين اذ لم تكن لتتفق مع العقل والمنطق، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يمكن القول ان الفلسفة العقلية لا تغني عن العقيدة الدينية ، طالما انها لا تفي بحاجة الرجل العادي العاطفية ولا تشبع رغبته للايمان والخلاصة يمكن القول انه كان هناك فراغ روحي ولعل هذا يفسر انتشار الاديان الصوفية الموغلة في الغيب والغموض والخيال ، بل في الخرافات والاساطير والوافدة الى العالم اليوناني والروماني من الشرق.

لقد كانت تلك الديانات الوافدة تتميز كلها بتجاوبها مع العاطفة من خلال الخيال والغموض من ناحية والشعائر والطقوس المعقدة من ناحية اخرى . وهكذا نرى انه في الوقت الذي اخذت فيه المسيحية الظهور والانتشار كان المثقفون قد وجدوا عزاء لهم في الاتجاهات الفلسفية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، امـا العامة فقد وجدت ذلك العزاء في الديانات الشرقية الصوفية ومع ان الافلاطونية الجديدة حاولت التوفيق بين الاتجاهين وحاولت ان تكون همزة الوصل بينهما الا ان نجاحها كان محدودا وقد يقال بشيء كثير من الصواب ، ان المسيحية ظهرت في وقت كان العالم فيه خاليا من دين حقيقي شامل وانه كان هناك فراغ روحي. جاءت المسيحية لتملأه .

حقا لقد عرضت المسيحية اشياء كثيرة كانت الديانات الشرقية قد عرضتها من قبل. ولكن المسيحية اضافت اشياء جديدة قصرت الديانات الاخرى عـــن بلوغها من ذلك تأكيدها الاخوة الانسانية تحت رعاية الابوة الالهية . التعاليم المسيحية اعطت مفهوما مسيحيا متميزا للحب والعطاء والاحسان والمسيحية ذهبت الى ابعـ مدى مما ذهبت اليه اية ديانة شرقية في عرض افكار اجتماعية واقعية توفر الفائدة في الحياة الدنيا والسعادة والهناء

الآخرة . وقد قال القديس بولص معبرا عن المفاهيم المسيحية ولو كنت املك نعمة التنبئ واعلم الغيب ، ولو كنت احيط علما بجميع الغموض والاسرار ، ولو كانت عندي المعرفة بكل شيء ، ولو كانت لدى كـل العقيدة والايمان ، فاستطيع بهما زحزحة الجبال الشامخات ، ولكني لا املك الحب والاحسان ، فانا لا شيء،

ويرى البرفسور . اس. هويت ان هناك ثلاث خاصيات للديانة المسيحية مكنتها من البقاء والانتصار هي:

ايمان المسيحيين المطلق بديانتهم ورفضهم التام لاية ديانة وعقيدة اخرى. تمييز انفسهم عمن سواهم بشكل حاد و فاصل دون مخاتلة و مهادنة من اي شكل. وللديانات الاخرى كلها آله. ولكن اله المسيحيين حريص ان لا يدعى احد سواه . انه الاله الواحد القدير ، وهو الواحد الاحد، والمسيحيون هم عباده المختارون المخلصون . وقال القديس بطرس انتم اية العباد المختارون. الملكيون . انتم الامة المقدسة . وانتم الصفوة من العباد. وهذه النظرة الى ربهم والى انفسهم جعلت المسيحيين مبغوضين مكروهين، ولكنها في الوقت نفسه شدت بعضهم الى بعض. وصهرتهم في جماعة متماسكة ، وكونت لديهم حسا وضميرا مشتركا. وجعلت منهم قاعدة صلدة استطاعت الحفاظ على ذاتها اولا ثم الاندفاع في التوسع على حساب الديانات والعقائد الأخرى في نهاية الأمر.

اعتراف المسيحية الصريح بحقوق السلطة الدنيوية لقد وضع القديس بولص ، الاساس للفكر السياسي المسيحي حين قال لا توجد سلطة غير سلطة الله وتلك التي فوضها وخولها . و من يقاوم هذه السلطة المفوضة يكون قد قاوم الله . وجزاء مثل هذا الهلاك والجحيم . والواقع ان المسيحيين لم يتعرضوا ابدا للامبراطورية الرومانية ولم ينافسوها سلطانها ، طالما ان مملكتهم لم تكن في هذه الدنيا ، بل في ملكوت السموات انهم ضيوف عابرون الى دار القرار . ولذا فان الحكومة الرومانية ، على الرغم من الصرامة والقسوة اللتين عاملتهم بهما في بعض الاحيان كانت متسامحة معهم بشكل عام . ولم تبذل تلك المحكومة اية محاولة جادة لاستئصالهم . ولم تشن حملات الاضطهاد القوية الا في ظروف الاضطراب خلال القرن الثالث للميلاد .

والمسيحية كما قلنا لم تهاجم الدولة ولم تتعرض لسيادتها ، ولكنها في الوقت نفسه لم تنصاع لها ولم تستكين لارادتها. لقد حرص المسيحيون على ان يكونوا مستقلين كل الاستقلال في مجال عبادتهم وعقيدتهم دون السماح لاى تدخل فيها باي شكل من الاشكال . كانوا مخلصين لهذا المبدأ اعطي ما لقيصر القيصر. وما لله لله ولذا رفضوا بثبات واصرار عبادة الامبراطور الامر الذي كانتتعتبره الحكومة الرومانية مظهرا من مظاهر الولاء السياسي والذي رأى فيه المسيحيون كفرا والحادا . ورفض المسيحيين المطلق لتدخل السلطة الزمنية في شؤون عبادتهم سبب لهم الكثير من المتاعب ولكن اكسبهم على المدى البعيد القوة والقدرة على البقاء.

٢) موقف الحكومة الرومانية من الديانة المسيحية – عهد الاضطهاد – حتى عام ٣١٣:

لم ترحب الحكومة الرومانية بالمسيحية وقاومت انتشارها مقاومة شديدة وذلك علي الرغم مما عرف عن سياسة تلك الحكومة من تسامح تجاه الاديان المختلفة . وهناك اسباب مهمة دفعت الحكومة الرومانية الى اتخاذ موقف متشدد من الديانة المسيحية ، منها :

(أ) ان المسيحيين الاوائل ، كان جلهم تقريبا يقيمون في المدن ، وعاشوا في عزلة عن بقية الناس. مما اثار الشكوك حولهم . وحمل السلطات الرومانية على الوجل منهم ثم دفعها الى اتهامهم بالتآمر على سلامة الدولة .

لقد كان معظم المسيحيين الأوائل من الاغريق الساكنين في المدن الرومانية والناقمين . ومن العبيد المضطهدين وكان كل من اولئك وهؤلاء في الاساس موضع شك وازدراء . من قبل المواطنين الرومان والحكومة الرومانية.

(ب) والاهم من هاذا وذاك ان المسيحيين رفضوا عبادة الامبراطور ورأوا في تلك العبادة ضربا من الوثنية البغيضة ، لا يمكن التهادن معها . في حين ان عبادة الامبراطور كانت امرا اساسيا بالنسبة للديانة الرومانية القديمة ودعامة من دعائم الحكم وركيزة من ركائز الوحدة ومظهرا من مظاهر الولاء . ورأت السلطات الرومانية في المسيحية الناكرة لعبادة الامبراطور، تهديدا خطيرا ليس لسلطان الامبراطور ومقامه الرفيع بل للامبراطورية وكيانها ومثلها. ومثل هذا جريمة يستحق صاحبها عليها العقاب. ولعل المؤرخ الروماني تاكيتوس عبر خير تعبير عن رأى الرومانيين في هذا المجال. فقد اتهم المسيحيين بعدائهم للجنس البشري وذلك لاستمتاعهم وولعهم في التشكك بكل القيم التي يقوم عليها المجتمع المتمدن انهم يضعون مصالحهم الدينية فوق مصالح المجتمع والدولة والواقع ان كثيرا من المثقفين لم تكن لديهم القناعة التامة في عبادة الامبراطور ولكنهم كانوا مضطرين لاظهار الرضى خدمة لمصلحة المجتمع.

ودفعت الاسباب الانفة الذكر بالحكومة الرومانية ، بل بعامة الناس الـ مقاومة المسيحية ، وكانت تلك المقاومة تتخذ احيانا صفة الاضطهاد والتعذيب بالقتل ايضا . وعلى الرغم من مبالغة المسيحيين في وصف ذلك ، فانه من المؤكد ان سياسة الحكومة الرومانية المعادية للمسيحية لم تبلغ ابدا من الصرامة بحيث تستأصل معها المسيحية او يحال دون انتشارها.

ودفع الموقف المعادي الى المسيحيين بهؤلاء الى ممارسة عبادتهم وابداء طقوسها في الخفاء ، بعيدا عن اعين السلطة ورقابتها . وكان افتضاح امرهم يعرضهم للعذاب والتنكيل. ومع هذا فقد ابدى الرجال والناس ، بل والاحداث ايضا شجاعة وثباتا . وواجهوا التعذيب باقدام وصبر يثيران الاعجاب . وكان يلقى بهم في بعض

الاحيان الى الوحوش والاسود في الساحات العامة امام اعين المتفرجين ، دون ان ينال منهم ذلك شيئا ودون ان يستكينوا لمضطهديهم أو يتراجعوا عن عقيدتهم.

وجاء اضطهاد المسيحيين على يد اباطرة جائرين عرفوا بظلمهم وطغيانهم مثل نيرون ، كما جاء على يد اباطرة آخرين عرفوا بالعدل والتعقل مثل دقلديانوس. ويمكن القول ان اغلب الاباطرة كانوا اكثر تساهلا مع المسيحيين من الحكام المحليين ، فقد كان هؤلاء اكثر ميلا للتشدد واكثر استجابة لضغط الرأي العام المعادي للمسيحية . ولسنين طويلة كانت سياسة الحكومة الرومانية تلخص بما ورد في رسالة الامبراطور تراجسان الى احد حكام الولايات وجاء فيها ما دام المسحيون لا يجاهرون بعبادتهم وعقيدتهم فدعهم وشأنهم.

٣) الاعتراف بالمسيحية (مرسوم ميلان):

وصار واضحا في اوائل القرن الرابع انه على رغم من اجراءات الحكومة الرومانية ضد المسيحية ، سواء كانت تلك الاجرات شديدة ام معتدلة ، فان عدد اتباع المسيحية ازداد الى درجة يتطلب الامر معها نوعا من الاعتراف بهذه الديانة واتخذت هذه الخطوة على يد الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣ وذلك بموجب مرسوم ميلان الشهير. حيث اصبحت المسيحية من الاديان المعترف بها في الامبراطورية الرومانية وصارت بذلك على قدم المساواة مع بقية الاديان. اما الدوافع وراء خطوة قسطنطين هذه ، فهي غير واضحة فبالنسبة للرواية المسيحية القديمة فان الامبراطور عند تقدمه الى اوربا في حرية ضد ما كسنتوس وفي ساعة حرجة من ساعات الحرب رأى بعد غروب الشمس نورا من السماء وفي وسطه صليب وتحته هذه العبارة ، ستنتصر بفضل الله ، ، فما كان من قسطنطين الا واتخذ الصليب شعارا له خلال المعركة فتم له النصر ، الامر الذي دفعه الى الاعتراف بالمسيحية . والحقيقة ان قسطنطين نفسه لم يصبح مسيحيا الا في أواخر حياته كما انه لم يتخل ابدا – خاصة في الشرق – عن الخاص بعبادة الامبراطور. وهذا يدل من غير شك ان الاعتبارات السياسية ورغبته في القضاء على عامل من عوامل التوتر والقلق في الامبراطورية هي المسؤولة ايضا عن اتخاذ هذه الخطوة وليس الاعتبارات الدينية المجردة فقط . ومهما تكن الحوافز الحقيقية لاعتراف قسطنطين بالمسيحية فان خطوته هذه كان لها اهميتها البالغة بالنسبة لمستقبل المسيحية ولمستقبل اوربا.

واصيبت المسيحية بانتكاسة مؤقتة على يد الامبراطور جوليان المرتد (٣٦١ – ٣١٣) ، ولكنها انتكاسة جاءت لتؤكد قوة الديانة الجديدة وصمودها. وفي عهد الامبراطور نيودسيوس ٣٩٥ رفعت المسيحية الى مستوى الديانة الرسمية للدولة . واعقبها اقدام الحكومة الرومانية على اضطهاد بقية الاديان وهكذا قبل ان تسقط الامبراطورية الرومانية كانت قد اصبحت امبراطورية مسيحية .